قبحٌ جميـــل

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

دخل أحمد بن أيمن (كاتب ابن طولون) البصرة ، فصنع له مسلمُ بن عمران التاجر المتأدب صنيعاً دعا إليه جماعة من وجوه التجار وأعيان الأدباء ، فجاء ابنا صاحبِ الدعوة ، وهما غلامان ، فوقفا بين يدي أبيهما ، وجعل ابنُ أيمن يُطيل النظرَ إليهما ، ويُعجب من حسنهما وبزّتهما ورُوائهما ، حتى كأنما أُفرغا في الجمال وزينته إفراغاً ، أو كأنما جاءا من شمس وقمر لا من أبوين من الناس ، أو هما قد نبتا في مثل تهاويل الزهر من زينته التي تُبدعها الشمس ، ويصقلها الفجر ، ويتندّى بها روحُ الماء العذب . وكان لا يصرف نظره عنهما إلا رجع به النظر ، كأن جمالهما لا ينتهي فما ينتهي الاعجاب به .

وجعل أبوهما يسارقه النظرَ مسارقة ، ويبدو كالمتشاغل عنه ، ليَدَعَ له أن يتوسّمَ ويتأمل ماشاء ، وأن يملأ عينيه مما أعجبه من لؤلؤتيه ومخايلهما . بَيْدَ أن الحسن الفاتن يأبى دائماً إلا أن يسمع من ناظره كلمةَ الاعجاب به ، حتى لينطق المرء بهذه الكلمة أحياناً ، وكأنها مأخوذة من لسانه أخذاً ، وحتى ليحس أنّ غريزةً في داخله كلّمها الحسنُ من كلامه فردّتْ عليــــه من كلامها .

قال ابنُ أيمن : سبحان الله ! ما رأيت كاليوم قطّ دُمْيَتَيْنِ لاتُفْتَح الأعينُ على أجملَ منهما ؛ ولو نزلا من السماء وألبستهما الملائكةُ ثياباً من الجنة ما حسبْتُ أن تصنع الملائكة أظرفَ ولا أحسن مما صنعت أمهما .

فالتفت إليه مسلم ، وقال أحب أن تعوّذهما . فمد الرجل يده ومسح عليهما ، وعوّذهما بالحديث المأثور ، ودعا لهما ، ثم قال : ما أراك إلا استجدْتَ الأمّ لحُســنَ نبلك ، وجاء كاللؤلؤ يشبه بعضه بعضاً ، صغارُه من كباره ؛ وما عليك ألاّ تكون قد تزوجت ابنةَ قيصر فأولدتّها هذين ، وأخرجتْهما هي لك في صيغتها الملوكية (١) من الحسن والأدب والرونق ، وما أرى مثلهما يكونان في موضع إلا كان حولهما جلالُ المُلك ووقاره ، مما يكون حولهما من نور تلك الأم .

فقال مسلم : وأنت على ذلك غير مُصدِّقٍ إذا قلت لك إني لا أحب المرأة الجميلة التي تصف ، وليس بي هوى إلا في امرأة دميمة هي بدمامتها أحبُّ النساء إليّ ، وأخفّهن على قلبي ، وأصلحُهن لي ، ما أعدل بها ابنةَ قيصر ولا ابنة كسرى

فبقي ابنُ أيمن كالمشدوه من غرابة ما يسمع ، ثم ذكر أن من الناس مَن يأكل الطين ويستطيبه لفسادٍ في طبعه ، فلا يحلو السكّر في فمه وإن كان مكرّراً خالصَ الحلاوة . وَرَثَى أشدّ الرثاء لأمّ الغلامين أن يكون هذا الرجل الجِلْف قد ضارّها (٢) بتلك الدميمة أو تسرّى بها عليها . فقال وما عِلك نفســه : أما والله لقد كفرتَ النعمة ، وغدرْتَ وجحدْتَ وبالغت في الضُّر ، وإن أمّ هذين الغلامين لامرأةٌ فوق النساء ، إذ لم يَتَبَيَّنْ في ولديها أثرٌ من تغيُّر طبعها وكدرِ نفسها ، وقد كان يسعها العذر لو جعلتْهما سَخْنةَ عينِك ، وأخرجتْهما للناس في مساوئك لا في محاسنك ، وما أدري كيف لا تَندُّ عليك ، ولا كيف صَلُحَتْ بمقدار ما فسدْتَ أنت ، واستقامت بمقدار ما التويْت ، وعجيبٌ والله شأ نكما ! إنها لتغلو في كرم الأصل والعقل والمروءة والخلق ، كما تغلو أنت في البهيمية والنزق والغدر وسوء المكافأة .

قال مسلم : فهو والله ما قلتُ لك ، وما أحب إلا امرأة دميمة قد ذهبتْ بي كلّ مذهب ، وأنستني كل جميلة في النساء ، ولئن أخذت أصفها لك لما جاءت الألفاظ إلا من القبح والشّوْهَةِ والدّمامة ؛ غير أنها مع ذلك لا تجيء إلا دالّةً على أجمل معاني المرأة عند رَجُلها في الحظوة والرضى وجمال الطبع . وانظر كيف يلتئم أن تكون الزيادة في القبح هي زيادة في الحسن وزيادة في الحب ، وكيف يكون اللفظ الشائه ، وما فيه لنفسي إلا المعنى الجميل ، وإلا الحسُّ الصادق بهذا المعنى ، وإلا الاهتزاز والطرب لهذا الحس ؟

(١) تجيء هذه الكلمة في كتب الأدب والتاريخ على غير قاعدة النسب وهو الافصح في رأينا ، ومن ذلك تسمية الامام ابن جني كتابه « الصريف الملوكي »

(٢) المضارّة اتخاذ الضرة على الزوجة .

قال ابن أيمن : والله إن أراك إلا شيطاناً من الشـياطين ، وقد عجّل الله لك من هذه الدميمة زوجتك التي كانت لك في الجحيم ، لتجتمعا معاً على تعـذيب تلك الحوراء الملائكية أمَّ هذين الصغيرين ، وما أدرى كيف يتصل ما بينكما بعد هذا الذى أدخلتَ من القبح والدمامة فى معاشرتها ومعايشتها ، وبعد أن جعلتَها لاتنظر إليك إلا بنظرتها إلى تلك . أَفَبَهِيمَةٌ هى لا تعقل ، أم أنت رجل ساحر ، أم فيك ما ليس فى الناس ، أم أنا لا أفقه شيئاً ؟

فضحك مسلم وقال : إن لى خبراً عجيباً : كنت أنزل « الأُبُلَّة » وأنا مُتَعيِّش فحملت منها تجارة إلى البصرة فربحت ، ولم أزل أحمل من هذه إلى هذه فأربح ولا أخسر ، حتى كثر مالى ، ثم بدا لى أن أتّسع فى الآفاق البعيدة لأجمع التجارة من أطرافها ، وأبسطَ يدى للمال حيث يكثر وحيث يقلّ ، وكنت فى مَيْعة الشباب وَغُلَوائه ، وأول هجمة الفتوّة على الدنيا ، وقلت : إن فى ذلك خلالاً ؛ فأرى الأمم فى بلادها ومعايشها ، وأتقلَّبُ فى التجارة ، وأجمع المال والطرائفَ ، وأفيد عظةً وعبرة ، وأعلم علماً جديداً ، ولعلني أصيب الزوجة التى أشتهيها وأصوّر لها فى نفسى التصاوير ، فإن أمرئ من أوله كان إلى عُلُوّ فلا أريد إلا الغاية ؛ ولا أرى إلا للسَّبق ، ولا أرضى أن أتخلف فى جماعة النـاس . وكأنى لم أر فى الأبلّة ولا فى البصرة امرأة بتلك التصاوير التى فى نفسى ، فتأخذها عينى ، فتعجبَنى ، فتصلح لى ، فأتزوج بها . وطمعت أن أستنزل نجماً من تلك الآفاق أُحرزه فى دارى ؛ فما زلت أرمى من بلد إلى بلد حتى دخلت «بلخ» (١) من أجلّ مدن خراسان وأوسعها غلّة ، تَحْمِلُ غَلَّتَهَا إلى جميع خراسان وإلى خوارزْم ؛ وفيها يومئذ كان عالمها وإمامها «أبوعبد الله البلْخى » وكنا نعرف اسمه فى البصرة ؛ إذ كان قد نزلها فى رحلته وأكثر الكتابة بها عن الرُّواة والعلماء ؛ فاستَخَفَّتْنِي إليه نَزِيَّةٌ من شوق إلى الوطن ، كأن فيه بلدى وأهلى ؛ فذهبت إلى حلْقته ، وسمعته يفسر قول النبى صلى الله عليه وسلم : « سوداء ولود خيرٌ من حسناء لا تلد . » فما كان الشيخ إلا فى سحابة ، وما كان كلامه إلا وحياً يوحَى إليه . سمعت والله كلاماً لا عهد لى بمثله ؛ وأنا من أول نشأتى أجلس إلى العلماء والأدباء وأداخلهم فى قرن من المذاكرة ، فما سمعت ولا قرأت مثل كلام البلخيّ ، ولقد حفظته حتى ما تفوتني لفظة منه ، وبقى هذا الكلام يعمل فى نفسى عمله ، ويدفعنى إلى معانيه دفعاً حتى أتى علىّ ما سأحدّثك به . إن الكلمة فى الذهن لتوجد الحادثة فى الدنيا .

قال ابن أيمن : إطْوِ خبرك إن شئت ، ولكن اذكر لى كلام البلخى ، فقد تعلّقتْ نفسى به .

قال سمعتُ أبا عبد الله يقول فى تأويل ذلكُ الحديث : أما فى لفظ الحديث فهو من معجزات بلاغة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو من أعجب الأدب وأبرعه ، ما علمت أحداً تَنَبَّهَ اليه ؛ فانه صلى الله عليه وسلم لايريد السوداء بخصوصها ، ولكنه كَنى بها عما تحت السواد ، وما فوق السواد ، وما هو الى السواد من الصفات التى يَتَقَبَّحُها الرجالُ فى خلقة النساء وصُوَرِهن ؛ فألطَفَ التعبيرَ ورقّ به ، رفعاً لشأن النساء أن يصفَ امرأة منهن بالقُبح والدّمامة ، وتنزيهاً لهذا الجنس الكريم ، وتنزيها للسانه النبوىّ ؛ كأنه صلى الله عليه وسلم يقول : إن ذِكْرَ قبح المرأة هو فى نفسه قبيح فى الأدب ، فان المرأة أمٌ أو فى سبيل الأمومة ؛ والجنة تحت أقدام الأمهات ؛ فكيف تكون الجنة التى هى أحسن ما يُتَخَيَّلُ فى الحسن تحت قدمى امرأة ، ثم يجوز أدباً أو عقلاً أن توصف هذه المرأة بالقبح .

أما إن الحديث كالنّصّ على أن من كمال أدب الرجل إذا كان رجلاً ألاّ يصف امرأة بقبح الصورة ألبتّة ، وألاّ يجرىَ فى لسانه لفظُ القبح ومافى معناه ، موصوفاً به هذا الجنسُ الذى منه أمّه : أَيَوَدّ أحـدُكم أن يزّق وجهَ أمّه بهذه الكلمة الجارحة ؟ .

وقد كان العرب يُفَصِّلُون لمانى الدمامة فى النساء ألفاظاً كثيرة ؛ إذ كانوا لا يرفعون المرأة عن السائمة والماشية . أما أكمل الخلْق صلى الله عليه وسلم ، فما زال يوصّى بالنساء ويرفع شأنهن ، حتى كان آخر ما وصى به ثلاث كلمات كان يتكلم بهن ، الى أن تلجلج لسانه وخَفِى كلامه ؛ جعل يقول : « الصلاة . . الصلاة . وما ملكت أيمانُكم ، لا تكلّفوهم مالا يطيقون ؛ اللهَ اللهَ فى النساء . »

(١) موقعها اليوم فى بلاد الأفغان .

قال الشيخ : كأن المرأة من حيث هى إنما هى صلاةٌ تتعبَّد بها الفضائلُ ، فوجبتْ رعايتها وتلقِّيها بحقها . وقد ذكرها بعد الرقيق ، لأن الزواج بطبيعته نوع رقٍّ ؛ ولكنه ختم بها وقد بدأ بالصلاة ، لأن الزواج فى حقيقته نوع عبادة .

قال الشيخ : ولو أن أمّاً كانت دميمة شوهاء فى أعين الناس لكانت مع ذلك فى عين أطفالها أجملَ من ملكة على عرشها ؛ فنى الدنيا من يصفها بالجمال صادقاً فى حسّه ولفظه ؛ لم يكذب فى أحدها ، فقد انتفى القبح إذن ، وصار وصفها به فى رأى العين تكذيباً لوصفها فى رأى النفس ، ولا أقلَّ من أن يكون الوصفان قد تعارضا فلا جمال ولا دمامة .

قال الشيخ : وأما فى معنى الحديث ، فهو صلى الله عليه وسلم يقرّر للناس أن كرَمَ المرأة بأمومتها ، فاذا قيل : إن فى صورتها قبحاً فالحسناء التى لا تلد أقبحُ منها فى المعنى . وانظر أنت كيف يكون القبح الذى يقال إن الحسن أقبح منه . . . !

فمن أين تناولت الحديث رأيته دالاًّ على تقدير أنْ لا قبح فى صورة المرأة ، وأنها منزّهة فى لسان المؤمن أن توصف بهذا الوصف ، فان كلمات القبح والحسن لغةٌ بهيمية تجعل حبَّ المرأة حباً على طريقة البهائم ، من حيث تفضلها طريقة البهائم بأن الحيوان على احتباسه فى غرائزه وشهواته لايتكذَّبُ فى الغريزة ولا فى الشهوة بتلوينهما ألواناً من خياله ، ووضعهما مرّة فوق الحدّ ، ومرّة دون الحد .

فأكبر الشأن هو للمرأة التى تجعل الانسان كبيراً فى إنسانيته ، لا التى تجعله كبيراً فى حيوانيته ، فلو كانت هذه الثانية هى التى يصطلح الناس على وصفها بالجمال فهى القبيحة لا الجميلة ، إذ يجب على المؤمن الصحيح الأيمان أن يعيش فيما يصلح به الناس ، لافيما يصطلح عليه الناس ؛ فان الخروج من الحدود الضيّقة للألفاظ الى الحقائق الشاملة هو الاستقامة بالحياة على طريقها المؤدى الى نعيم الآخرة وثوابها .

وهناك ذاتان لكل مؤمن : إحداهما غائبة عنه ، والأخرى حاضرة فيه ، وهو إنما يصل من هذه الى تلك ، فلا ينبغى أن يحصر السماوية الواسعة فى هذه الترابيّة الضيّقة . والقبح إنما هو لفظ ترابيٌّ يشار به الى صورةٍ وقع فيها من التشويه مثلُ معانى التراب . والصورة فانيــة زائلة ، ولكنّ عملها باقٍ ؛ فالنظر يجب أن يكون الى العمل . فالعمل هو لا غيره الذى تتعاوره ألفاظ الحسن والقبح .

وبهذا الكمال فى النفس ، وهذا الأدب ، قد نظر الرجل الفاضل من وجه زوجته الشوهاء الفاضلة ، لا الى الشوهاء ، ولكن الى الحور العين . إنهما فى رأى العين رجل وامرأة فى صورتين متنافرتين جمالاً وقبحاً ؛ أما فى الحقيقة والعمل وكمال الايمان الروحىّ فهما إرادتان متحدتان تجذبُ إحداهما الأخرى جاذبية عشق ، وتلتقيان معاً فى النفسين الواسعتين ، المراد بهما الفضيلة وثواب الله والانسانية ؛ ولذلك اختار الامام أحمد بن حنبل عوراء على أختها ، وكانت أختها جميلة ، فسأل : من أعقلها ؟ . فقيل : العوراء . فقال : زوجونى إياها . فكانت العوراء فى رأى الامام وإرادته هى ذات العينين الكحيلتين ، لوفور عقله وكمال إيمانه .

قال أبو عبد الله : والحديث الشريف بعد كلّ هذا الذى حكيناه يدلّ على أن الحب متى كان إنسانياً جارياً على قواعد الأنسانية العامّة ، مُتّسعاً لها غير محصورٍ فى الخصوص منها — كان بذلك علاجاً من أمراض الخيال فى النفس ، واستطاع الانسان أن يجعل حبّه يتناول الأشياء المختلفة ، ويَرُدُّ على نفسه من لذّاتها ، فان لم يسعدْه شىءٌ بخصوصه ، وجدَ أشياءَ كثيرة تُسْعِدُه بين السماء والأرض ، وإن وقع فى صورة امرأته ما لا يُعَدّ جمالاً ، رأى الجمالَ فى أشياءَ منها غيرِ الصورة ، وتَعرَّف إلى ما لا يخفَى ، فظهر له ما يَخفَى ؛

وليست العينُ وحدها هى التى تُؤامَر فى أىّ الشيئين أجمل ، بل هناك العقلُ والقلب ، فجوابُ العينِ وحدها ، إنما هو ثلث الحق . ومتى قيــل « ثلث الحق » فضياعُ الثُلُثين يجعله فى الأقل حقّاً غير كامل .

فما نكرهه من وجهٍ ، قد يكون هو الذى نحبّه من وجه آخر ، إذا نحن تركنا الارادة السليمة تعمل عملها الانسانىّ بالعقل والقلب ، وبأوسع النظرين دون أضيقهما « وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعلَ اللهُ فيه خيراً كثيرا . »

* * *

فوثب ابنُ أيمن ، وأقبل يدور فى المجلس مما دخله من طَرَبِ الحديث ويقول : ما هــذا إلا كلام الملائكة سمعناه منك يا بن عمران . قال منسّر : فكيف بك لو سمعتَه من أبى عبد الله ؛ إنّه والله قد حبّب إلىّ السوداءَ والقبيحة والدميمة ، ونظرتُ لنفسي

بخير النظرين ، وقلتُ : إن تزوجتُ يوماً فما أبالى جمالاً ولا قبحاً ، إنما أريدُ إنسانيةً كاملةً مني ومنها ومن أولادنا ، والمرأةُ فى كل امرأة ، ولـكن ليس العقل فى كل امرأة .

قال : ثم إنى رجعتُ إلى البصرة ، وآثرتُ السكنى بها ، وتعالَمَ الناس إقبالى ، وعلمتُ أنه لا يَحسُنُ بى المُقامُ بغير زوجة ، ولم يكن بها أجلُّ قدراً من جدّ هذين الغلامين . وكانت له بنت قد عضَلَها وتعرّضَ بذلك لعداوة خُطّابها ، فقلت : ما لهذه البنت بدٌّ من شأن ، ولو لم تكن أكملَ النساء وأجملَهن ، ما ضنَّ بها أبوها رجاوةَ أن يأتيه من هو أعلى ، فحدثتني نفسي بلقائه فيها ، فجئتُه على خلوة ...

فقطع عليه ابنُ أيمن وقال : قد علمنا خبرها من منظر هذين الغلامين ، وإنما نريدُ من خبر تلك الدميمة التى تعشّقتَها

قال : مهلاً فستنتهي القصةُ إليها . ثم إنى قلت : ياعمّ ، أنا فلان بن فلان التاجر . قال : ما خفى عنى محلُّك ومحلُّ أبيك . فقلت : جئتُك خاطباً لابنتك . قال : والله ما بي عنك رغبة ، ولقد خطبها إلىّ جماعة من وجوه البصرة وما أجبتهم ، وإنى لكارهٌ من إخراجها عن حِضني إلى من يقوّمها تقويم العبيد . فقلت : قد رفعها الله عن هذا الموضع ، وأنا أسألك أن تدخلَنى فى عددك ، وتخلِطنى بشملكَ . فقال : ولا بدّ من هذا ؟ قلت : لا بدّ . فقال : أغدُ علىّ برجالك .

فانصرفت منه إلى مَلأ من التجار ذوى أخطار ، فسألتهم الحضور فى غدٍ . فقالوا : هذا رجل قد ردّ من هو أثرى منك ، وإنك لتحرّكنا إلى سَعْيٍ ضائع . قلت لا بدّ من ركوبكم معى . فركبوا على ثقة من أنه سيردّهم .

فصاح ابن أيمن ، وقد كادت روحه تخرج : فذهبتَ فزوّجَك بالجميلة الرائعة أمّ هذين ، فما خبر تلك الدميمة ؟

قال مسلم : ياسيدى قد صبرتَ إلى الآن ، أفلا تصبر على كلماتٍ تنبئك من أين يبدأ خبر الدميمة ، فإنى ما عرفتها إلا فى العرس .

قال : وَغَدَوْنا عليه فأحسنَ الاجابة وزوّجني ، وأطعم القوم ونحر لهم ، ثم قال : إن شئتَ أن تبيت بأهلك فافعل ، فليس لها ما يُحتاجُ إلى التلوّم عليه وانتظاره .

فقلت : هذا ياسيدى ما أحبه . فلم يزل يُحدّثني بكل حسن حتى كانت المغرب ، فصلاّها بى ، ثم سبّح وسبّحت ، ودعا ودعوت ، وبقى مقبلاً على دعائه وتسبيحه ما يلتفت لغير ذلك ، فمضّنى — علم الله — كأنه يرى أن ابنته مُقْبلةٌ مني على مصيبة ، فهو يتضرّع ويدعو . ثم كانت العَتَمةُ فصلاّها بى ، وأخذ بيدى فأدخلني إلى دار قد فُرشت بأحسن فرش ، وبها خدم وجوارٍ فى نهاية من النظافة . فلما استقرّ بى الجلوس حتى نهض وقال : أستودعُك الله ، وقدّم الله لكما الخير وأحرزَ التوفيق .

واكتنفني عجائزُ من شمله ، ليس فيهنّ شابّة إلا من كانت فى الستين . . . فنظرت فاذا وجوه كوجوه الموتى ، وإذا أجسام بالية يتضامّ بعضها الى بعض ، كأنها أطلال زمن قد انقضّ بين يدىّ .

فصاح ابن أيمن : وإن دميتك لعجوز أيضاً ... ؟ ما أراك ياابن عمران إلا قتلت أمّ الغلامين ... !

قال مسلم : ثم جلَوْن ابنته علىّ وقد ملأْن عينىّ هرماً وموتاً وأخيلةَ شياطين وظلال قرود ؛ فما كدت أستفيق لأرى زوجتى ، حتى أسرعن فأرخين الستور علينا ؛ فحمدت الله لذهابهن ، ونظرت .

وصاح ابن أيمن وقد أكله الغيظ : لقد أطلتَ علينا فتحكى لنا قصتك إلى الصباح ، قد علمناها ، فما خبر الدميمة الشوهاء ؟ .

قال مسلم : لم تكن الدميمة الشوهاء إلا العروس ! ....

* * *

فزاغت أعين الجماعة ، وأطرق ابنُ أيمن إطراقةَ مَن وَرَد عليه ما حيَّره . ولـكن الرجل مضى يقول : ولما نظرتُها لم أرَ إلا ما كنتُ حفظتُه عن أبي عبد الله البلخيّ ، وقلتُ : هى نفسي جاءت بي إليها ، وكأن كلام الشيخ إنما كان عملاً يعمل فىّ ويدبر ، ويُصرّفني . وما أسرعَ ما قامت المسكينةُ فأكبّت على يدى وقالت :

« ياسيدى ، إنى سرٌّ من أسرار والدى ، كتمه من الناس وأفضى به إليك إذ رآك أهلاً لستره عليه ، فلا تُخْفِرْ ظنّه فيك . ولو كان الذى يُطلَب من الزوجة حسنَ صورتها دون حُسنِ تدبيرها وعفافها لعَظُمَت محنتى . وأرجو أن يكون

معي منهما أكثرُ مما قصَّر بي في حُسْن الصورة؛ وسأبلغ محبَّتك في كل ما تأمرني. ولو أنت آذيتَني لعَدَدْتُ الأذى منك نعمةً، فكيف إن وَسِعني كرمُك وسَتْرك؟ إنك لا تعامل الله بأفضلَ من أن تكون سبباً في سعادة بائسة مثلي. أفلا تحرص ياسيدي على أن تكون هذا السببَ الشريف؟ »

ثم إنهـا وثبتْ فجاءت بمال في كيس وقالت: ياسيدي، قـد أحلّ الله لك معي ثلاثَ حرائر وما آثرته من الاماء؛ وقد سوّغتُك تزويجَ الثلاث وابتياعَ الجواري من مال هـذا الكيس، فقد وقفتُه على شهواتك، ولستُ أطلب منك إلا سترى فقط.

* * *

قال أحمـد بن أعين: فحلف لي التاجر: إنها ملكتْ قلبي مِلْكاً لاتصل اليه حسناءُ بحسنها، فقلت لهـا: إن جزاء ما قدّمتِ ما تسمعينه مني: « والله لأجعلنّك حظيّ من دنيـاي فيما يُؤْثِره الرجل من المرأة، ولأضربَنّ على نفسي الحجاب ماتنظر نفسي إلى أنثى غيرك أبدا.» ثم أتممتُ سرورَها فحدثتها بما حفظته عن أبي عبد الله البلخي. فأيقنتْ والله ياأحمـد أنها نزلتْ مني في أرفع منازلها، وجعلتْ تحسُـن وتحسن كالغصن الذي كان مجرودا ثم وخزته الخضرة من هنا ومن هنا.

وعاشرتُهـا فاذا هي أضبط النساء، وأحسنهن تدبيراً، وأشفقهن عليّ، وأحبُّهنّ لي؛ وإذا راحتي وطاعتي أوّلُ أمرها وآخره؛ وإذا عقلها وذكاؤها يُظهران لي من جمال معانيها ما لا يزال يكثر ويكثر، فجعل القبح يقلّ ويقل، وزال القبح باعتيادي رؤيته، وبقيتْ المعاني على جمالها؛ وصارت لي هذه الزوجة هي المرأةَ وفوق المرأة.

ولما ولدتْ لي جاء ابنها رائع الصورة، فحدثتني أنها كانت لاتزال تتمنيّ على كرم الله وقدرته أن تتزوّج وتلد أجمل الأولاد، ولم تدع ذلك من فكرها قط، وألّف لها عقلُها صورة أجمل غلام تتمثّله وبارحت تتمثله. فاذا هي أيضا كان لها شأنٌ كشأني، وكان فكرُها عملاً يعمل في نفسها، ويديرها ويصرّفها.

ورزقني الله منها هـذين الابنَيْن الرائعَيْن لك، فانظر أيُّ معجزتين من معجزات الايمان. ؟

(طنطا) **مصطفى صادق الرافعي**

صفحة من التاريخ

ميـــــدان القَبَق

بين السعد والنحس

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

صف لي ملاهي قوم من الأقوام أصف لك خلقهم ونصيبهم من الحياة — وإذا أخطأني حظ الاصابة مرة لم يكن الخطأ إلا مؤقتاً، ويكون تطاول الأيام كفيلاً بتحقيق ما أتوقع — وليس ذلك ناشئاً من أن الله قد وهبني ما لم يهب سواي من قدرة على التكهن أو التنبؤ، بل هي مجاري الأقدار تنساق في سبيل لا حيلة في الحيد عنها، ولا وسيلة إلى الانفلات منها.

وقد علمت أن الرومان أقبلوا على ملاهٍ يقشعر بدن الانسانية من تصور ماكان يجري فيها من فظائع. وايمن الحق ماكان لامرىء أن يتنبأ لشعب الرومان إلا بالانحدار والانحلال ما دامت نفوسهم لا تهتز إلا بسفك الدماء، ولا ترتاح إلا إلى مناظر الوحشية. وقد رأيت ماتنم عليه آثار مدنية يومىء من هوى إلى سحيق الدعارة، وماكان لك أن تتطلع في مستقبل ذلك الشعب إلا إلى نزول وهبوط، إذ أن النفوس لا تلهو إلا بما مرنت عليه واطمأنت إليه وسرى في عاداتهـا وتغلغل في حياتها. وللحياة القوية مطالب وتكاليف، إذا اعتادت النفوس القيام عليها صارت لذتها في مباشرتها. ودونك من الشعوب القوية ما يوضح ذلك أتم ايضاح، فذلك شعب الانجليز ترى لذة شبانه وكهوله في ممارسة الرياضة بأنواعها، والجولان في البحر والبر والهواء، يجدون اللذة القصوى في مقارعة الأخطار ومقابلة العقبات. وإذا شئت مثلاً آخر فلن تعوزك المُثُل؛ فالشعوب القوية ولله الحمد كُثُر في كل عصر، ولن ترى شعباً قوياً تنزو به الحياة وتثب به القوة إلا رأيت لذته في مثل مقارعة الخطوب ومنازلة قوى الطبيعة. ولقـد كان لنا آباء — رحمهم الله — لم يكونوا من المتخلفين في ميـدان الحياة. بل كانوا حماة عصرهم وسادة جيلهم. ولست